الجائحة بين الفقيه والطبيب: "مختصر كتاب الطاعون" تقديم وتخريج*

حميد الفاتحي

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

hamid.elfatihi@uit.ac.ma

ملخص

نزلت جائحة كوفيد-19 بالمجتمعات الإنسانية على حين غرة، فاتجه كل حسب تخصصه إلى سبر أغوارها، وكان للمؤرخ دور في تأصيل الظاهرة الوبائية كرونولوجياً والكشف عن التحولات البنيوية التي أنتجها الطاعون. ويظهر من خلال النبش في النصوص التراثية أن الفقهاء، وعلى امتداد الزمن الاجتماعي المغربي، امتلكوا الكلمة الفصل في إبداء الرأي في أسباب الوباء، وأعراضه، وعلاجه بالدعاء والدواء، وطرق الاحتراز منه، وإمكانية القدوم على البلد المُجاح أو مغادرته، وإجراء "الحجر الصحي" عليه. غير أن هذا الحكم تُصْدِرُهُ بعض الجهات اليوم دون التعامل المباشر مع النص الديني المُعَبِّر عن العقل الفقهي. لذلك سنعمل في هذه المساهمة على تخريج مخطوط من عمل شخصين مجهولين، وهو: "مختصر كتاب الطاعون" للفقيه محمد الرهوني مع إنجاز قراءة أولية فيه.

الكلمات المفاتيح: كوفيد-19، الوباء، الجائحة، الطاعون، الدعاء، الدواء، الرهوني.

Résumé

Consterné par la propagation de la pandémie Covid-19, les spécialistes de diverses disciplines observent le processus de contamination à travers toute la planète. Les historiens s'efforcent de fournir des éclairages sur les origines et la chronologie du phénomène pandémique, et sur les changements structurels engendrés par la peste. À travers le temps social marocain, les Faqihs possédaient le pouvoir moral de se prononcer sur les pandémies en décrivant les causes, les symptômes, le traitement par supplication et remèdes, les moyens de se prémunir, les restrictions d'entrer ou de quitter le territoire d'un pays touché, et les mesures qui devraient accompagner le "confinement sanitaire "d'un pays ou d'une région. Certains expriment ce jugement sans se référer directement aux textes qui reflètent la mentalité religieuse. De ce fait, cette contribution sera consacrée à l'annotation d'un manuscrit inédit. C'est un résumé écrit par deux anonymes intitulé : « Abrégé du livre de la peste» du Faqih Mahammad Rahouni. En parallèle, on procèdera à une lecture préliminaire du texte et de son contexte.

Mots-clés : *Covid-19, Pandémie, Supplication, Peste, remède, Rahouni.*

* انظر المخطوط و تخريج "مختصر كتاب الطاعون" للفقيه محمد الرهوني في قسم الملاحق بالكتاب (الملحقين رقم 1 و 2).

مقدمة

حَجَرَتْ جائحة كوفيد-19 (COVID-19) على الناس أمام شاشات الحواسيب والأجهزة الإلكترونية كما حجرت عليهم في بيوتهم وجعلتهم يتساءلون، في ذهول، عن طبيعة فيروس كورونا المستجد؟ وبأي طريقة ينتقل؟ وما السبيل للنجاة من عدو غير مرئي؟

وفي هذا الخضم المضطرم، اشرأبت الأعناق للمختبرات الطبية عساها تعلن البشرى باكتشاف المصل أو العلاج. وفي ظل موجة من المعلومات الموثوقة والزائفة كذلك، والتي تقصف رؤوس الناس، برز دور المثقف بمقاربة الموضوع مقاربة تقوم على الملاحظة والرصد والتساؤل والنقد، في محاولة لبناء معرفة ترشف من معين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

حَكَمَ فيروس كورونا المستجد بتواري الوثيقة الورقية والانخراط في التواصل والتأطير عن بُعد، وفسح المجال أمام أعداد من الناس للتعبير عن آرائهم عن بينة وعلى غير هدى. وفي هذا الخضم، اتجهت المواقع الإلكترونية للصحف والمجلات والمؤسسات العلمية للباحثين في التاريخ الذين شحذوا هممهم للتأريخ للأوبئة والكشف عن مصائر العالم بعد كل جائحة عصفت به، بل منهم من اتجه للتنظير واستشراف ما سيؤول إليه عالم ما بعد كورونا.

ولا سبيل إلى التغاضي عن قضية أساسية طبعت الفكر العالِم والثقافة الشعبية إبان هذه الأزمة الصحية، وهي استحضار البعد الديني لها بالتوازي مع التأكيد على أهمية الطب وامتلاكه الكلمة الفصل في اكتشاف الترياق. وفي هذا الصدد تنازع عدد من الباحثين نتفا من نصوص فقهية تعلن عن حقيقة الوباء وأساليب مواجهته والتعامل مع المصابين به والعلاجات المقترحة لذلك، بينما انبرى فريق آخر للحفر في أصول "الذهنية المعاصرة المطعونة" بأفكار تحرف النقاش في اتجاه تصور يسوق مبررات غير علمية.

أوحى لنا هذا السجال بضرورة الانكباب على النص الديني مباشرة، خصوصا ما أنتجه المالكية والمغاربة منهم، وبذلك وقع اختيارنا على مخطوط وضعه مجهولان باسم: "مختصر كتاب الطاعون" للفقيه محمد الرهوني (ت1230هـ / 1815هـ) محاولين الإسهام في مقاربته من زوايا متعددة عساها تفيد في نسج صورة متكاملة عن علاقة المغاربة بالأمراض والأوبئة على مر التاريخ ونظرتهم إليها بعيون الفقيه والطبيب.

يترتب على ما سبق طرح السؤال التالي: هل يقتضي التعامل مع النص الفقهي التمييز بين المنظور الديني والمنظور التأريخي الهادف للكشف عن الخلفية الاجتماعية المؤسسة له؟ هل نحن أمام تدوين في تاريخ الوباء والطب؟ أم أمام كتابة فقهية صرفة؟ أم هي كتابة تَقْرِنُ بين الفقه والطب في مجتمع كان يفصل فيه بين التخصصات خيط رفيع، فالطبيب قد يكون فقيها كذلك؟

وإذا تقرر لدينا أن النخب الاجتماعية التي كانت تقود المجتمع كانت ذات خلفية فقهية، هل يجوز لنا اليوم مع اشتداد أزمة جائحة الكوفيد-19 أن نتحدث عن استمرارية التراتبية ذاتها في وقت يتسمر الناس كل مساء في انتظار بيانات مديرية الأوبئة بوزارة الصحة لتتبع تطور الحالة الوبائية، وبيانات لجنة اليقظة الاقتصادية من أجل دعم القطاعات المتضررة، وتتصدى فيه الداخلية والشؤون الإسلامية والمجلس العلمي الأعلى لبعض مُتحَدِي قرارات السلطة باسم الدين وإصدار الفتاوى بخصوص إغلاق المساجد وإلغاء الجماعات والجُمَع.

1. نبذة عن محمد الرهوني

1.1. مسارات الرهوني

ينتمي أبو عبد الله محمد (فتحاً) بن أحمد بن محمد الرهوني المدعو بُرِكشَة إلى قبيلة رهونة، إحدى قبائل جبل الزبيب الواقعة مضاربها بين مدينتي شفشاون ووزان. وهو سليل أسرة اشتهرت بالولاية والصلاح. (الكتاني، 2004، 109/1. ابن زيدان، 2008، 217/4).

ولد محمد الرهوني في ذي القعدة من سنة 1159هـ / نونبر 1746م، وقد تنقل في طلب العلم بين بلده وتطوان، ومكناسة الزيتون وفاس، وتتلمذ على شيوخ عصره أمثال أبي عبد الله محمد بن حسن الجنوي وأبي عبد الله محمد التاودي ابن سودة وأبي عبد الله محمد بن الحسن بناني. (الرهوني، 1978، 5/1). عاد الرهوني لوزان وانتصب للتدريس والإفتاء والتأليف، وقد وصفه الكتاني بما صورته: «ممن دارت عليه الفتيا في زمنه ببلاد الهبط... وكانت له معرفة تامة بالنوازل ورسوخ في الفقه، يحرر المسائل وينسبها لأربابها» (الكتاني، 2004، 109/1).

اقترب الرهوني من دوائر السلطة السياسية العلوية، فقد خطب الجمعة بمولاي سلامة بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل عندما بويع له بوزان في اليوم نفسه 29 رجب 1206هـ / 23 مارس 1792م، بإشارة من علي بن أحمد الوزاني وبني عمومته وعلي بن ريسون. وقد بالغ مولاي سلامة في استمالة أهل وزان ماديا و«أفاض فيها الأموال الطائلة والملابس الفاخرة» غير أن ولايته لم تدم سوى شهرين وخرج فارا من وزان. كما أن المولى سليمان بن محمد بن عبد الله داخل الرهوني وأخذ عنه وقرظ له حاشيته على الزرقاني. (ابن زيدان، 2008 216/1، 218).

توفي الفقيه محمد الرهوني في رمضان من سنة 1230هـ / غشت 1815م ودفن بوزان (ابن زيدان، 2008، 219).

2.1. الإنتاج الفكري للرهوني

ألف الرهوني في مجالات فقهية تروم شرح مختصرات الفقه المالكي والتعامل بعض نوازل العصر سواء ما له صلة بالقضايا الداخلية أو بالتعامل مع الأجنبي، ومما يذكر من مؤلفاته:

- حاشيته على الزرقاني وبناني الموسومة بـ "أوضح المسالك وأسهل المراقي إلى سبك إبريز الشيخ عبد الباقي". مطبوعة.
- حاشيته على الشيخ ميارة الكبير للمرشد المعين، وربما لم تكتمل.
- مجموعة خطب. مطبوعة.
- التحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة.
- إظهار ما يفكر أهل الفطنة ليعرض على ذوي الذكاء والفطنة. أدرجه في حاشية الزرقاني.
- تنبيه الخصوص والعموم في حرمة السفر بالشحم والشمع لأرض الروم.
- إزالة الالتباس في جواز أخذ كاس العدل من فيض ماء الأحباس.
- المنهج الواضح المرعي في أن نسب ساداتنا الشرفاء قطعي.
- جواب في أحكام الطاعون. مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم د2251. (ابن زيدان، 2008، 218/1. ابن سودة، 1997، 114. البزاز، 1992، 418).

2. التعريف بـ "مختصر كتاب الطاعون"

1.2. تفاعلٌ مع قضايا العصر

عاصر الرهوني سلسلة من المجاعات والطواعين التي لم تكن لتختفي حتى تعود أكثر شراسة وأكثر فتكا، إذ تزامن مولده أواخر سنة 1159هـ / 1746م مع طاعون ضرب المغرب بصورة متقطعة بين 1155هـ / 1742 و1160هـ 1747م كما أن وفاته سنة 1230هـ / 1815م، تزامنت مع تمدد الطاعون الذي عاد للظهور في مصر 1228هـ / 1813م قبل أن يصل إلى المغرب في وقت لاحق. (البزاز، 1992، 57، 104)، واعتمادا على دراسة محمد الأمين البزاز يمكن رصد ذلك بإيجاز من خلال الجدول التالي:

الوباء أو المجاعة	تاريخه	المسار و النتائج	الصفحة
طاعون	1744-1742	طاعون ضرب المغرب في شتاء وربيع السنوات المذكورة وأوقع قتلا ذريعا في البلاد.	57-52
طاعون	1751-1747	انطلق من الجنوب وعم البلاد سنة 1751م، متزامنا مع جفاف وحروب أهلية، وخلف خسائر بشرية فادحة.	62-57
مجاعة	1776	غزارة في الأمطار وتصدير للأقوات وشح في الأموال وحدوث المجاعة الكبيرة.	71
مجاعة	1782-1779	انحباس المطر وغزو الجراد وحدوث الغلاء والمجاعة.	78-73
طاعون	1800-1798	وفود الطاعون من المشرق عبر تلمسان، وانتشاره بنوعيه الدملي والرئوي، وحدوث انهيار ديموغرافي خلت معه مدن من سكانها.	95-90
مجاعة	1818-1817	توالي هجمات الجراد والجفاف ما تسبب في أزمة غذائية.	103-102
طاعون	1820-1818	جائحة متوسطية وصلت إلى المغرب وعصفت به.	105-104

يظهر أن الرهوني عاصر سبعة من الجوائح والمجاعات التي ضربت المغرب، ومن دون شك، فإن هذه الأحداث قد طبعت شخص الرجل، ودفعته نحو التأليف في الموضوع بناءً على مرجعياته الفقهية مع الالتفات إلى قول الأطباء في الموضوع. وبذلك وضع «تأليفا في الطاعون نفيسا جدا في نحو كراستين» كما ورد في مقدمة المختصر الذي نقدم له اليوم، ولسنا ندري إن كان هو نفسه "جواب في أحكام الطاعون" الموجود في المكتبة الوطنية، وبالرغم من أن نص جوابه مثبت في المعيار الجديد فإننا لا نجزم بتطابقهما (الوزاني، 1996، 241/2-257). وقد بينت المقارنة الأولية اختلاف نص الجواب المثبت في المعيار الجديد مع المختصر الذي نقدم له اليوم. ولم يفوت الرهوني اعتلاء المنبر لإلقاء خطبة الجمعة "في الحض على الصبر عند نزول الطاعون". (الرهوني، 2015، 186). ويظهر أنه سار على نهج أستاذه محمد بن الحسن بناني الذي ألف "رسالة في الطعن والطواعين" (مخطوط، المكتبة الوطنية، الرباط، رقم د1854)، وذلك عندما وقع الطاعون بفاس عام 1156هـ / 1743م، وكان الطاعون قد هادن المغرب حوالي نصف قرن (البزاز 1992، 52، 417).

وقد مكننا التنقيب في محركات البحث المتخصصة من تنزيل نسخة إلكترونية من "مختصر كتاب الطاعون" المحفوظة بقسم المخطوطات الطبية بالأكاديمية الملكية بقرطبة[1]. والملاحظ أنه تم تصنيف هذه المخطوطة في قسم الطب رغم غلبة الطابع الفقهي عليها، فلم يثبت عن الرهوني في ترجمته أنه كان طبيبا بل كان «حامل لواء تحقيق الفقه المالكي في زمانه» (ابن زيدان، 215/4).

وإن كنا متأكدين من صحة نسبة تأليف الرهوني في الطاعون إلا أننا لم نعرف على وجه التحقيق من هو صاحب "مختصر كتاب الطاعون"، ولم نظفر باسمه في آخر المختصر ما عدا إشارة لا تغني فيها دعاء بالمغفرة لكاتِبِيْهِ وناظره. فالراجح أنه عمل اشترك فيه بعض ممن تتلمذ على الرهوني مشافهة أو بالسماع أو بالقراءة. ويتأكد وجود كاتبين لنص المختصر بوجود خطين مختلفين. أما الناظر، وإن كان قد راجع النص ورممه، فإنه مع ذلك، أغفل بعض الأخطاء والبياضات القليلة التي تتخلل النص.

وبالرغم مما سبق، فقد كتب "المختصر" بخط مغربي واضح، وسنضرب صفحا عن بعض الأخطاء اليسيرة من قبيل كتابة بعض الكلمات بالتاء المبسوطة عوض التاء المربوطة أو إدراج

---

[1]- أهدت إسبانيا مكتبة الإسكندرية مجموعة متنوعة من المخطوطات، وهذه المجموعات يمكن حصرها في ثلاث:

-مخطوطات من مكتبة الأكاديمية الملكية بقرطبة، وهي عبارة عن 11 فيلما تشتمل على 56 مخطوطة ، بالإضافة إلى قرصين يحتويان على نسخة إلكترونية من هذه المخطوطات الموجودة على الميكروفيلم.

-مخطوطات من المكتبة البلدية بقرطبة ، وهي عبارة عن 11 فيلما تشتمل على 95 مخطوطة بالإضافة إلى قرصين يشتملان على 186 مخطوطة عربية.

- مخطوطات من المكتبة الوطنية الإسبانية على قرص يشتمل على 58 مخطوطة عربية.

انظر موقع: https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=24249 (بتاريخ: 19 - 04 - 2020)

بعض المدود في كلمات معينة، وذلك تفاديا لإثقال النص بالتصحيحات التي تعتبر من باب تحصيل الحاصل.

2.2. منهج الرهوني في تصور الجائحة

على عكس الرهوني وأستاذه بمعاصرتهما دورات من الجوائح وتعديد مساهماتهما في موضوع الطواعين، فقد اقتحم علينا فيروس كورنا المستجد حياتنا دون استئذان، وجعل بحثنا فيه خاضعا لما تيسر من مظان في مكتباتنا الخاصة وما تجود به مواقع النت بعد أن فرض علينا الحجر الصحي عدم مبارحة بيوتنا إلا للضرورة بله شد الرحال للعاصمة الرباط وولوج المكتبة الوطنية من أجل الحصول على نسخة من "جواب في أحكام الطاعون". ولا مراء في أن استشهاد بعض المقالات المنشورة بما ألفه الرهوني عن الطاعون جاء عرَضا، ولم يغرف منه مباشرة. وحسبنا دليلا على ذلك ما ورد في مقالين اثنين: الأول، يحاول تفكيك الخطاب الديني المحكوم بالشروط التاريخية التي أنتجته حول الأوبئة والأمراض، وقد وَصَمَ صاحب المقال الرهوني ومن سار على نهجه بالضعف والتجاسر على ادعاء امتلاك الحقيقة. (الإبراهيمي، 2020). والثاني، يجزم بأن ما كتبه الرهوني وغيره يتسم بسيادة التصورات الدينية الغيبية التي تحول دون الوقوف عند الظاهرة بحد ذاتها أو تؤرخ لها، فكانت رسالة الرهوني كغيرها من «الرسائل التي تتقاسم نفس العناوين ونفس التصورات الجاهزة، التي تغلق الباب أمام أي اجتهاد» (الوزاني، 2020). في الواقع هذه الأحكام هي نفسها تظل جاهزة وتحتمي بالتعميم في مناقشتها للمصادر التراثية دون أن الحفر فيها لإماطة اللثام عن معطياتها والتمييز بينها.

تدور مواضيع مختصر كتاب الطاعون في فلك جملة من المواضيع التي شغلت بال من ألَّفَ في موضوع الطواعين على امتداد قرون طويلة وصولا إلى عصر الرهوني، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- حقيقة الوباء والطاعون والتمييز بين الجائحة والوباء.
- في القدوم على بلد الطاعون والخروج منه.
- ما ينبغي التحصن به من أدعية وحروز.
- في الأدوية التي توصف في حال الوباء.

تكشف هذه المحاور الأربعة عن تكوين الرهوني، وركونه للنصوص الفقهية بما يفوق الثلاثة أرباع في تأليفه، أما البقية فهي عبارة عن وصفات لعلاجات متداولة، لم تُبرهن عن فعاليتها بشهادة الرهوني ومن قَبْلَه. إن هذا التفاوت في النسب لا يعكس فقط العقلية الفقهية، ولكن يعكس كذلك عجز الإنسان عن مواجهة الجائحة وإيجاد أجوبة علمية لها في زمن لم لم يكتشف فيه الطب اللقاحات الكفيلة بالتصدي للوباء.

3. مختصر كتاب الطاعون: رؤى متقاطعة

يحتمل مختصر كتاب الطاعون قراءات متعددة يمكن من خلالها امتلاك زمام فهم النص، وبالإضافة للقراءة الفقهية التي هي صلب الموضوع، نستطيع مقاربته مقاربة تمزج بين الفقهي والطبي والتاريخي.

1.3. القراءة الفقهية

في واقع الأمر، إن مختصر الرهوني، درج على مسالك الفقهاء، لذلك جاء في صورة مسرد لأقوال المالكية في القدوم على البلاد التي بها الوباء أو الخروج منها. وهنا يجب وضع كل هؤلاء الفقهاء في سياقهم التاريخي وترتيبهم ترتيبا كرونولوجيا، فبالإضافة إلى اعتماد القرآن والسنة في التأصيل الفقهي والاستدلال والحجاج، فإن الرهوني الذي عاصر المولى سليمان في بداية القرن 13هـ / 19 يعتمد على نقول من فقهاء يمكن حصرهم زمنيا فيما بين القرنين 4 و13هـ / 10و19م، بمعنى أن العقل الفقهي المغربي بقي أسيرا لنظرة وسيطية، ولم يطله التجديد عكس الفكر الأوروبي الذي ترك التفكير الديني وراء ظهره بفعل الثورة الفكرية المرافقة لعصر النهضة، وكذلك بسبب عجز رجال الدين الأوروبيين عن إيجاد أجوبة مقنعة للطاعون الأسود الذي جرف أكثر من ثلث ساكنة أوروبا أواسط القرن 14م / 8هـ.

لقد استشهد الرهوني بالحديث الذي رواه البخاري: «الطاعون رجز أُرسِلَ على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم. فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه. وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارا منه». كما استشهد بحديث آخر عن الطاعون أنه: «وخز أعدائكم من الجن». وهناك اتجاه آخر نبّهَ إليه، يفسّر ظهور الطاعون بانتشار الفواحش والمنكرات.

حاول الرهوني أن يكون توفيقيا في مسألة "وخز الجن" مع الطب بتبنيه الفكرة التي تذهب إلى أن التعرف على أعراض الطاعون هي من اختصاص الأطباء لكن منشأه، في نظره، من طعن الجن ولا يدركه عقل الأطباء، بل إنه اقتبس كلاما من الشيخ أحمد زروق يجمع بين الاتجاه الفقهي والطبي كون الجن تستغل فساد الهواء فتخز به الأجسام وتطعنها.

وبغض النظر عن التحقق من صحة هذه الأحاديث التي تبارت فيها كتب الحديث، فإن ما يهمنا هو استحضار هذه الأحاديث في جائحة كوفيد-19 وتوظيفها. استوقفنا هنا تقرير يستطلع آراء بعض الفقهاء عن تفسير فيروس كورنا المستجد بأنه بـ"وخز الجنّ"؟ وهل هو ثابت دينيا؟ وقد رافق هذا الجدل حول مدى توافق التفسير الديني مع التفسيرات الطبية المؤكدة على أن الطاعون ناشئ عن بكتيريا حيوانية وأن كوفيد-19 ناشئ عن مصدر فيروسي، وليس بكتيريا كما هو الحال في الطاعون. وأشار الباحث أسامة نمر أستاذ الحديث النبوي وعلومه في جامعة الزرقاء الأردنية، إلى أن الحديث الأول ورد من روايتين، يوجد في الأولى راوٍ مجهول، وفي الثانية

راوٍ مختلف فيه، وبهذا لا يمكن أن ينهض دليلا للاحتجاج به على قضية غيبية، لا سبيل لإثباتها إلا بنص ديني قطعي الثبوت. أما نضال ثلجي، وهو متخصص في الحديث النبوي وعلومه، فيرى أن الحديث الأول أخرجه الإمام أحمد، والحاكم في المستدرك، وغيرهم، ومن جهة ثبوته يقول: «لا يعلم أحدا من علماء الحديث صرح بضعفه، وقد صححه ابن خزيمة والحاكم في المستدرك، وابن حجر في فتح الباري، ومن المعاصرين الشيخ الألباني». وواصل أسامة نمر حديثه بالقول: «ولو تنزلنا وقَبِلْنا به كنص ثابت، فهو مما ينبغي تأويله عن ظاهره، لأن الأمراض لها أسباب طبيعية معروفة عند الأطباء، وهي قرينة تجعلنا نصرف الحديث عن ظاهره، وتفسيره بأن الطاعون يأتي بخفاء وبسرعة، كما يتحرك الجن بخفاء وسرعة». وتساءل نمر: «ما الذي نستفيده أو نقرره حينما نذهب في تفسير الحديث إلى إثبات أن الطاعون من وخز الجن؟ ففي النهاية نحن مأمورون بالأخذ بالأمر الشرعي في التماس العلاج والتداوي بالأسباب الطبية المعروفة عند الأطباء، وبالذهاب إلى المستشفيات عند الحاجة إليها». (بسام ناصر، 2020).

والمثير فيما له علاقة بالجانب الفقهي أن بعض الفقهاء من غير المالكية قد افتوا بعدم جواز الدعاء برفع الطاعون وَحَرَمُوا الناس من التضرع إلى الله بحجة أن من يموت بالطاعون هو شهيد، والشهادة لا يجوز الدعاء برفعها. غير أن فقهاء المالكية أباحوا ذلك بحكم أن الطاعون مرض كسائر الأمراض يجب على الإنسان أن يلتمس له العلاج وأن يدعو برفعه، واستعان الرهوني برأي الغزالي في ذلك واستحسنه لكنه في الآن نفسه لمزه من بعيد كونه غير مالكي، وكأنه هنا يذكر بالحملة التي تعرض لها الغزالي من طرف فقهاء المالكية زمن الدولة المرابطية.

2.3. القراءة الطبية

قارنَ الباحث أحمد السعداوي بين الكتب والرسائل المؤلفة في الطواعين والجوائح، وخَلُصَ إلى أن رسالة ابن خاتمة المؤلفة سنة 1349م، والمسماة: "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، ورسالة ابن الخطيب "مقنعة السائل عن المرض الهائل" تمتازان بالدقة العلمية في وصف المرض وتقديم العلاجات والاحتياطات الضرورية. أما ما كتبه ابن حجر في "بذل الماعون في فوائد الطاعون" وابن أبي حجلة في "دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة"، فيدخل في حيز الفقه ويظل الجانب الطبي فيها هامشيا. (السعداوي، 1995، 120). لم يشذ الرهوني عن هذين الاتجاهين، وبالرغم من أنه غلَّب الجانب الفقهي، إلا أنه وقف في المنزلة بين المنزلتين، مما جعله يقدم معطيات قليلة عن الطب لكن فيها ضبط في المقادير ومقارنة بين الوصفات والمركبات الداخلة في علاج الجائحة واتقائها.

ينقسم الطب عند الرهوني إلى قسمين:

- **طب روحاني**: هو الرقية بالمعوذات وغيرها من أسماء الله.

- **طب جثماني**: أو جسماني أو طب الأبدان، هو القائم على العلاج بالدواء.

يُنْكِرُ الرهوني اللجوء إلى السحر والشعوذة، ويرى كغيره من طبقات الفقهاء أن الطب الروحاني أولى من الجسماني، وأن اللجوء إلى الدواء القائم على التجربة العامية أمسى ضرورة بعد أن عزَّ الأبرار مستجابي الدعوة من أهل الرقية!

وبعد أن أورد بعض الأحاديث النبوية الروايات التي تعود لصدر الإسلام، استشهد الرهوني في تعريف معنى الوباء بكلام ينطلق من الواقع كونه: «مرضُ الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفا للمعتاد من الأمراض الكثيرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعا واحدا بخلاف سائر الأوقات».

ينقل الرهوني كلام الأيمة في القدوم والخروج على البلد الذي يصيبه الوباء، وحصل فيه ثلاثة أقوال: وغلَّب القول الثالث بأن الأفضل أن لا يقدم عليه وأن لا يخرج عنه، اتقاءً لتفشي الوباء وحجراً على بعض الجهات الموبوءة، كما يشير إلى قول ابن رشد الذي يراعي العامل النفسي "للأوهام المُشَوِّشَة". وفي هذا الصدد يورد كذلك رأي الونشريسي في إغلاق الحدود في وجه القادمين من الخارج تفاديا للعدوى. وبالمقابل، ألزم ابن لب أهل الأندلس بعدم مغادرة الجهات التي يعم فيها الوباء خوفا على أنفسهم. وإذا كان ابن لب قد ألزم الناس بعدم ترك الجهات الموبوءة فرارا منها وتركا لها، فإنه يوصي من سلم من الناس بالتحرز من الإلقاء بنفسه في تهلكة ودعا مخالطي المرضى إلى عدم التطير من ذلك.

ختم الرهوني رسالته في الطاعون بالتعريج على الأدوية النافعة، ولكنه لم يفصل في هذا المبحث كثيرا واكتفى بإيراد أقوال بعض الفقهاء كابن حجر وزروق، وهو أمر لا يمكن استغرابه بحكم تكوينه الفقهي الذي ربما منعه من التوسع فيما كتبه الأطباء في هذا الشأن. ويتضح من الوصفات التي قدمها أنها أشبه بالمهدئات منها بالأدوية، وهو ما يبرر استئثار الأدعية والحروز بالاهتمام الأكبر في بحثه باعتبارها علاجات تركز على مداواة الجانب النفسي في المريض في غياب العلاج الشافي واشتداد وطأة الوباء الذي كان يأتي على ملايين البشر بصفة دورية. وهذا الاتجاه تقاسمته الحضارة الإسلامية مع المسيحية التي كانت تلجأ هي نفسها لهذا النوع من الأدعية والرقى كلما عزَمَ عليها خطب الطواعين. وبالرغم من عدم فعاليته التي أكدها توالي الجوائحُ على المغرب، اقترح الرهوني مُرَكَّباً اسمه "روفش" أو شرب الماء بقوة أو شرب الخل، أو البنفسج.

3.3. البعد التاريخي

يكشف مختصر كتاب الطاعون عن بعض الأحداث التاريخية ذات الصلة بمواضيع الطواعين كتلك التي ضربت مجتمع الجزيرة العربية في صدر الإسلام، غير أن ما استوقفنا هو توظيف بعض النصوص الفقهية التي تشير إلى الطاعون الجارف الذي عم العالم أواسط القرن

الثامن للهجرة بداية من سنة 748-753هـ/ 1347-1352م مع ارتداداته على امتداد هذه المرحلة بحيث أصبح الناس يَفِرُّونَ من المناطق التي مسَّها الطاعون ويتركون المصابين في مواجهة مصيرهم كما اتضح من خلال النازلة التي عرضت على ابن لب الغرناطي. وفي سياق مواز يحيل استشهاد الرهوني بنصوص فقهية معاصرة لهذه الجائحة على أن هذه الجائحة طبعت العقل الفقهي في بلاد المغرب والأندلس قرونا عددا، وغدت مرجعا يستند إليه الفقهاء لتصريف مواقفهم.

لقد تربص الطاعون بمجتمعات بلاد المغرب، وظل يولد الفزع والرعب وَرَسَّخَ في الذاكرة الجماعية، ومن بينها طاعون 796هـ / 1393م الذي حلّ بإفريقية، وتجلى ذلك في المصادر المعاصرة[1](السعداوي، 1995، 119، 125)، واستمر شبحه جاثما على صدور من جاء بعده بحيث استحضر الرهوني هذه الواقعة للكشف عن العامل النفسي في تاريخ الجوائح بعدم مخالطة البلد الموبوء، وساق رواية للفقيه أبي عبد الله محمد الأُبي حين وقوع الوباء بتونس حيث رفض الشيخ ابن عرفة الالتحاق بـ"مدرسة التوفيق" لإلقاء دروسه بعد أن مات بها أحد الطلبة الساكنين بها، ومباشرة بعد أن رفع الوباء: «سَخَّرَهُ الله تعالى وجدَّ في الإقراء في ذلك العام». تنازعَ ابنَ عرفةَ الخوفُ من الطاعون وحبُّ ممارسة مهنة التدريس ولقاء الطلبة، فكان أن انتصر الحب في الأخير وعاد إلى الصف وإلى حضن طلبته.

المصادر

ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (2017)، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ج10، صص532.

ابن زيدان عبد الرحمن (2008)، *إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج4، صص625.

الأُبي أبو عبد الله محمد بن خليفة الوشتاني (د.ت)، *إكمال الإكمال*، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، صص690.

التنبكتي أحمد بابا (2000)، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، صص702.

حاجي أمير زاده (2016)، *رسائل فقهية*، دراسة وتحقيق صهيب محمود الجميلي، دار الكتب العلمية، بيروت، صص80.

[1]. قام المؤرخ التونسي محمد حسن في السنوات الأخيرة بتجميع ثلاث رسائل في الطاعون ألفها أندلسيون، وهم: ابن خاتمة (ت770هـ / 1369م) في "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" وابن الخطيب (ت776هـ / 1374م) في "مقنعة السائل عن المرض الهائل" والشقوري (تـ بعد 776هـ / 1373م) في "النصيحة". وما يجمع هؤلاء كلهم معاصرة الطاعون الجارف الذي انتشر في المنطقة المتوسطية منتصف القرن الثامن الهجري / منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وقد تناول المحقق في تقديمه لهذه الرسائل، ثلاثة أمور أساسية: أولا: تطرق لنظرة هذه المصنفات للوباء. ثانيا: حلّل المادة الطبية الواردة في الرسائل. ثالثا: استخرج مواقف الفقهاء من الجائحة. (حسن محمد، 2013).

الرهوني محمد (1978)، *حاشية الإمام الرهوني على شرح الزرقاني لمختصر خليل*، دار الفكر، بيروت، ج1، صص442.
الرهوني محمد (2015)، *الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء*، دار الفكر، لبنان، صص224.
الزَّبيدي محمد بن محمد الحسيني (2016)، *إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين*، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، صص727.
زروق أحمد بن محمد البرنسي الفاسي (2020)، *شرح على متن الرسالة*، اعتنى به وكتب هوامشه أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، صص1200.
السخاوي شمس الدين (د.ت) ، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، دار الجيل، بيروت، ج3، صص344.
السنوسي الحسني أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (2008)، *مكمل إكمال الإكمال*، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، صص690.
الشوكاني محمد بن عبد الله (د.ت)، *البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع*، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج2، صص652.
القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري (2013)، *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، م2، ج3، صص445.
الكتاني محمد بن جعفر (2004)، *سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس*، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ج1، صص452.
محمد حسن ، تحقيق ودراسة. ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، سلسلة التاريخ، تونس، 2013، صص358.
مؤلف مجهول (د.ت)، *مختصر كتاب الطاعون* للرهوني، مخطوط الأكاديمية الملكية، قرطبة، قسم المخطوطات الطبية، N°2 ،Serie .2، عدد الورقات.19.
الوزاني المهدي (1996)، *النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بـ "المعيار الجديد الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"*، مقابلة وتصحيح عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، نوازل الحج، ج2، صص659.
الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى (1981)، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب*، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج11، صص396.
ياقوت الحموي (1977)، معجم *البلدان*، دار صادر، بيروت، ج3، صص470.

المراجع

الإبراهيمي زكرياء ،*كورونا وشيوخ من زمن الطاعون*، هسبريس، جريدة إلكترونية مغربية:
(بتاريخ: 18-03-2020) https://www.hespress.com/writers/463544.html
ابن سودة عبد السلام (1997)، *دليل مؤرخ المغرب الأقصى*، دار الفكر، بيروت، صص414.
البزاز محمد الأمين (1992)، *تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، صص430. دار الإفتاء المصرية،
https://www.facebook.com/EgyptDarAlIfta/posts/3383432481686510/

(بتاريخ: 23 مارس 2020)

علي عبد الرحمن، *"تحصنت بذي العزة".. دار الإفتاء تنشر دعاء التحصين من الوباء*، صحيفة اليوم السابع الإلكترونية، مصر.

https://www.youm7.com/story/2020/3/15/دار-الإفتاء-تنشر-صيغة-دعاء-التحصين-من-الوباء-تعرف-عليها (بتاريخ: 27 فبراير 2020)

محمود شعبان، *دعاء الوقاية من أنفلونزا الخنازير*: https://al-maktaba.org/book/31615/32916 (بتاريخ: 14-04-2020)

ناصر بسام، *هل تفسير الطاعون بـ"وخز الجن" ثابت دينيا؟*، العربي21، صحيفة عربية إلكترونية: https://arabi21.com/story/1261747/هل-تفسير-الطاعون-بـ-وخز-الجن-ثابت-دينيا (بتاريخ: 16-04-2020)

الوزاني حسن، *الوباء ضيفا ثقيلا على المؤرخين*، صحيفة العرب، لندن: https://alarab.co.uk/الوباء-ضيفا-ثقيلا-على-المؤرخين (بتاريخ: 14-03-2020)

السعداوي أحمد (1995)، *المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته، القرنين 8-9 / 14-15م*، منشورات IBLA، الجزء58، العدد175، صص119-141.



الحياة......

في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟

مؤلف جماعي تحت إشراف:

جمال الكركوري

أحمد الفرحان

يونيو 2020

الكتاب: الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد- 19"

إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرحان

رقم الإيداع القانوني: 2020MO2036

ردمك: 978-9920-9476-0-2

الطبعة الأولى 2020

